مسامير في العجلة ...

قصة بقلم صلاح برهان

« علمونا بأن الشمس لا تسلتر بالغربال »

– ١ –

لم تكن الصدفة ولكن المقصورة رقم (٣) في القطار الاوروبي هي التي جمعتنا انا وطالب طب في المانيا وموظف كان في طريقه للمعالجة في اوروبا ، وكنت اخر من دخل المقصورة ، فجلست بجانب طالب الطب بينما امتد الموظف في المقعد المزدوج المقابل لنا في راحة ، ولم أكن أشم غير التراب .

– حبذا لو أغلقنا النافذة .

قام طالب الطب اليها في تثاقل وأغلقها في برود ثم عاد الى مجلسه واغمض عينيه وربما كان يشتمني ، فلولا حضوري لكان هو الاخر ممتدا في راحة مثل جاره ، وحاولت أن أنام أنا أيضا ولكن صافرة القطار ووقوفه بين فترة واخرى لم يدع لي الخيار في أتنوم براحة ، فرحت أغمض عيني وأنا أذكر دموع صديقتي وهي تودعني في محطة «صوفيا» ، فمرة أخرى أحمل حقائبي الى لندن رغم انني كنت قد كفرت بكل شيء خلال وجودي هناك . فقد كنت شابا صغيرا حينما حملتني الطائرة الى « لندن » أبحث عن الامل وأحلم بالالوان وأجد طريقي سهلا معبدا الى المستقبل . كنت عودا طريا أبحث عن سندان ومطرقة لاصير فولاذا صلدا ، فدرست سنوات في الجامعة وتعلمت الحياة مع طلبة اكثر مني خبرة ، وأحببت ربيعا في مثل عمري وسهرت لاجلها الليالي ، وعشقت أرملة غبية ونمت ليالي وأنا أجول في « سوهو » ودخلت تنظيمات الطلبة فجمعتهم حولي ، فقد كنت لبقا ، ذكيا ، مخادعا ونذلا في نفس الوقت ، وأعجبت بالاشتراكية خلال دراستي في معهد الدراسات الاقتصادية ، وبحثت عنها وامتلكت كل طاقتي وفكري وانصهرت في الجموع التي لا تؤمن الا بالانسان ، وطردت من الجامعة ، الا انني لم أنقص ايماني بما درست فحملت متاعي وانطلقت الى وطن الاشتراكية.. وتراجعت في منتصف الطريق ... لم أكن أخاف أن أتهم بشيء ، ولم يكن يهمني أن أفقد حق المواطنة في وطني ، فبلدي سجن رأسمالي لا يهمني الا الانطلاق منه ولست أقول الهرب لانني لا أهرب ولكنني ربما كنت سأكون في ذهابي الى وطن الاشتراكية ، متطرفا ... شيوعيا ولم أكن أريد أن أتهم بالشيوعية فقطعت رحلتي وبقيت في « صوفيا » .

خيوط الفجر كانت تكاد تنبلج وأنا نصف نائم والموظف الراقد قبالتي يبدو في أوج راحته ، وراح في سبات له جرس منتظم ، فدخول الهواء وخروجه من أنفه كان يجري بفواصل معينة رحت أراقبها في لذة ، وصدره يعلو حينما تنخفض بطنه وينخفض حينما ترتفع ويده اليمنى تنام في سكون على وسطه والغبار قد لون شعره بغير انتظام ، وفي فترات متباعدة كان يستيقظ فيرفع حاجب عينه اليمنى ويفتح احدى عينيه بينما تكون اخرى نائمة ... حركته تلك كانت رائعة حاولت مرارا تقليدها فيما بعد ولكنني كنت أفشل كل مرة .

أشعلت سيكارة رحت أستهلكها وشيء ما يوجع صدري ، ودرست في صوفيا سنوات أخرى ، كنت أفتقد لندن وحياتي في لندن ، فلم أجد في صوفيا الا الالوان الباهتة ، وحتى الزهور هناك لم تكن قرمزية. وبحثت عن البنفسج فلم أجده الا في المتحف الطبيعي ، كانوا يريدون أن أدرس الاشتراكية وأنا أعيشها ، ولم أحتملها . فرغم حبي لصديقتي « روز » وتعلقها بي وحبي لغرفتي الصغيرة في دار الطلبة ، كنت في شوق الى البطاطس المحمرة ، والضباب ، ورجل البوليس الذي لا يستطيع الابتسام ، فهناك سأدرس الاشتراكية وأنا أعيشها مع نفسي فقط .

ومع الصباح بدأ حديث طويل بين الموظف السمين وطالب الطب ومع رشفات الشاي الذي دعانا اليه الموظف كان الحديث يتشعب وأسئلة وقحة تسأل وأجوبة حذرة تحكى في غباء ، ففراميات طالب الطب ، وأساليبه في تهريب العملات الى ألمانيا الشرقية كانت تاخذ بلب الموظف الذي كان يقطع الحديث بين فترة وأخرى ليسأل عن الاطباء والمستشفيات في ألمانيا ثم عن الشقراوات والمواخير ، وفي كل مرة كان الاخر يؤكد له انه سيساعده وسيلازمه هناك ، ولكن الحديث الطلي هذا انقطع فجأة بدخول شقراء طويلة الى المقصورة فوضعت حقيبتها على الارض ونظرت الي في استجداء ، فقمت من مجلسي وحملت عنها الحقيبة الى الرف وسحب الموظف ساقيه وفسح لها مجلسا بعد أن شتمها بالعربية ، وجلست قبالة طالب الطب الذي راح يحدق فيها في اشتهاء والموظف ينظر اليها بطرف عينيه ، وساد سكون طويل بيننا حاولت أن أقطعه بأسئلة شتى ولكن أيا منهما لم يشجعني على الكلام أكثر فسكت :

– ما رأيكم فيها ؟

– صديقاتي أجمل منها واروع .

« تكذب أيها الغبي » قلت في نفسي .

– ستجد كثيرات في أوروبا أجمل منها وأحلى .

– احلم أيها المسكين ، فليس يجد السائح الا العاهرات ..

وعقلي يعمل بسرعة ، سأحدثها أنا ، بالرغم من انها رفضت لفافة الدخان التي قدمتها اليها .

– هل أنت ذاهبة الى فيينا ؟

كانت تشبه النمساويات في كل ملامحها ، أنفها الدقيق ، وجهها الصافي ، عيناها الصغيرتان ، قامتها ... وفي كل شيء .

– لا ..

– اذن الى المانيا ؟

– كلا .. (ولها الحق فليست تشبه الالمانيات في شيء)

– اذن الى لندن ؟

– أنا من لندن فعلا ..

وقطعت حديثها بسرعة وكأنني أمسكت بطرف الخيط :

– اذن سنكون معا حتى لندن .

فابتسمت في حنان :

– وماذا تعمل هناك ؟

– أدرس الاثار .

ومدت لي كفها بعد أن فكرت قليلا :

– نحن اذن أصدقاء مهنة .

وفرحت طبعا وضحكت اعماقي ونجحت امام زميلي في اطالة الحديث معها ، فهي من لندن وتدرس الاثار ، كانت تبحث عن اثار من العصور الجليدية في حدود النمسا الشرقية ، ورغم انني لم اكن أفهم كثيرا في الاثار ولكنني كنت أحاول أن أتذكر ما قرأته في كتب التاريخ

وفي الصحف عن الاثار والرومان والانسان القديم ، وامتد الحديث ونجحت مثل كل مرة ، سنكون أصدقاء ، وربما سأعيش معها في لندن وربما هي غنية او ابنة لورد ، وسأنام معها غدا ، او الليلة ان نام زميلي .. ثم لم أفكر في شيء وتركت الدفة لها .

ـ ٢ ـ

شوقي الى البيت كبير ، فسنين طويلة قضيتها هنا وهناك أعمل في يأس وكسل جعلتني أنسى لذة الحياة في بيت يظلله الحنان ، فلم أعرف أبي ، ولم تكن أمي بالاطار الذي يمكن أن أتصور الامومة فيه، ولكني كنت أجد في بيتها رغم كل شيء بعض الحنان وأتنفس فيه الطمأنينة ، وحاولت خلال سنين طويلة أن أبني نفسي وأضع لمسات جمال لحياتي ، ولكن الفراغ والغباء كانا يسحقان كل أحلامي ويبددان أمنياتي ، فعملت خادمة في مطعم وفي منزل ثم درست في معهد ليلي ، ولكن كل ذلك لم يشبع شوقي الى الحياة التي كنت أحلم بها فانطلقت من لندن الى ليفربول ثم الى بورتسموث والى دوفر وبروكسل ، واشتغلت في مزرعة قرب « باريس » وأحببت رجلا ثم اخر ، ونمت مع من أحب وحملت ثم أجهضت نفسي ومرضت وعضني البرد في مصح حكومي وعضني الجوع وأنا أبحث عن عمل جديد ، ونمت مع امير شرقي مرة فضربني ولم يدفع لي شيئا لانه لم يكن اميرا قط ، فهربت منه وعشت مع مزارع نمساوي قاس في مزرعة لا يزرع فيها شيء وسط الثلوج فسرقت نقوده وهو نائم وقررت العودة الى لندن لانتحر او لابحث عن شيء يملأ أيامي بالالوان .

وحينما صعدت الى القطار ، صدمت ، فقد وجدت نفسي وسط ثلاثة رجال شرقيين، واستطيع أن أعرف هؤلاء في يسر ، الوانهم ، نظراتهم، ملابسهم الاوروبية التي تشكو منهم ، وجلست بجانب رجل سمين في بجامة صفراء فاقعة بعد أن كان أحدهم قد هرع ليحمل عني حقيبتي وكأنني عاجزة عن حملها ، ومن مجلسي رحت اراقبهم في حذر ورجفة ، كنت أشعر بها تسري في أوصالي ، فقد فكرت للحظة ان احدهم سيندفع نحوي ويضربني ثم ينام معي ، ثم لا يدفع شيئا ، وكل منهم كان يتقرب الي بطريقته الخاصة ، فالرجل السمين كان يلامس جسدي بيده في عفوية مصطنعة ، والاخر كان ينظر الي في شراهة مغلفة بستار من رومانسية مفضوحة ، والرجل الذي حمل عني الحقيبة كان كثير الكلام ، يلون وجهه بألوان من اللطف سخيفة ، وشعرت به ثقيلا أجوف ، ولكنه تحدث في أمور كثيرة لم تكن تهمني في شيء وعبث بخيالي ثم تراءى لي فارسا صلبا يلين ان شملته ابتسامة حنان وتسري في جنباته طفولة حبيبة ، فراح يسألني في الحاح ساذج عن اشياء كثيرة أجبت عليها بلا تفكير وأردت اطلاعه على نيتي في الذهاب الى لندن للانتحار ، ولكنني ترددت في اطلاعه على شيء فسألته :

ـ هل من الضروري أن يعيش الانسان ؟

فنظر الي في حنان :

ـ انها قضية نسبية .

ولم أسمع بقية حديثه .. نفس النسبية التي كان يتحدث عنها أستاذنا في معهد الرسم ، كل شيء في الكون نسبي ، حتى ابتسامتي وحديثي . ورحت أجاول اطالة الحديث الذي قطعه خيالي على نفسي .

ـ هذه النسبية ، لست أحبها ، فلست أظن أن كل شيء يمكن أن يكون نسبيا ، فتصور حديثك معي ، هل كان يمكن ان يتغير لو انني مثلا لم أكن أنا ؟

ـ بالطبع ، كانت ستتغير نظرتي اليك . وحديثي معك ، كان يمكن أن يأخذ مجرى اخر .

وقاطعته : ولكن تصور مثلا انني لست أنا ، وكانت أمامك عاهرة أو لنقل ساقطة .. ما الذي كان سيتغير ؟

وفي حماس أجاب :

ـ كونك ساقطة مثلا كان سيعني انك لست أنت ، فالسقوط يجب أن يكون غير عدم السقوط ، فالسقوط يجب ان يكون شيئا اخر ولكنني مع ذلك لست أظن ان امرأة ساقطة لا يمكن ان تكون عاهرة او ان عاهرة يمكن ان تكون ساقطة ..

وضحكت آمالي ، فأنا لست ساقطة لانني عاهرة ، فأنا كما أبدو للناس لست الا امرأة لا يمكن أن تكون غير أنا وسرحت في حلم لذيذ ..

ـ هل تخرجين الى الممر ؟

ولم أجبه ، ولكنني قمت الى ممر العربة الضيق ووقفت امام النافذة، والى جانبي وقف ينظر معي الى قرى نظيفة متناثرة على جانب الطريق وراح يتغزل في الماء الذي يجري من السفح برقة ويعانق الصخور ثم ينطلق ليوازي خط القطار ويغيب فجأة تحته ليظهر من الجانب الاخر ثم يمتد الى نهاية لا أراها .

ـ سوزي .. هل يضيرك أن نحب بعضنا ؟

ورغم أنه قالها بحنان ، فلم أكن أتوقع هذا أبدا ولم افهم جيدا مرامه أول الامر ، وأطرقت ثم أعدت عبارته على ذاكرتي ، هل يضيرني أن أحب هذا الغريب ؟ لا .. لست أظن ذلك . ولكن الحب لا يأتي بهذه السهولة في بلادي ، وفهمت تماما ما يقصد ... ولكن لماذا سأحبه، ربما هو صديق سفر لا بد منه ، ولكن هل من الضروري أن أحبه ؟ وما الذي سأحب فيه ، وكيف ؟ ومرة أخرى أصر ... هل يضيرنا ان نحب بعضا ... كم سيعطيني ؟ أنا أكاد أفهم هؤلاء ، انه قد أحب شفتي وصدري وذاب شوقا الى احتواء ساقي ، ولكنه .. عليه اللعنة ، لم يحب عيني ... انني أريد رجلا يحب عيني لاجل عيني . واقترب مني واحتوى شفتي بفمه ، وشعرت بالملح يسري في فمي ، ولم أحب قبلته ، فابتعدت شفتاي عنه في أناة :

ـ كم ستدفع ؟

تعسا للغبي !! انه لا يفهم ماذا اريد ، فأشرت بأصابعي : انني أريد نقودا .

فتسمرت في اللحظة عيناه وتغير ، تهدج صوته وهو يقول شيئا لم أرد سماعه ، واحتوت شفتاه سيكارة ترتجف فأشرت له اني أريد واحدة فمد لي يده بالعلبة ثم لم يهتم باسترجاعها وظل ينظر الى جبل بعيد ، وشعرت بأنه كبير كالجبل وأردته أن يلتفت الي فضحكت عاليا .

نظر الي شزرا فأمسكت بساعده وقلت مبتسمة :

ـ لاقل لك الحقيقة ...

ولم يكن يريد ان يسمع ، فشبكت بأصابعي يده :

ـ أنا تعيسة !

ولم يسمعني ثانية وشعرت بالدموع في عيني :

ـ هل سمعتني ؟ أنا تعيسة .. أريد أن أموت .

ـ ارمي بنفسك من النافذة اذن .

قالها ولم يكن يقصد ما يقول .

هل تريد ذلك ؟

ـ وما دخلي في الامر ؟

ـ ألست تحبني ؟

فابتسم ، ثم حبس ابتسامته ، وتركت ان ابتسم له وتحتني شعرت الضعف ، ولم أجد في نفسي قدرة على الابتسام فدخلت المقصورة حينما كان الاخران مشغولين بحديث حماسي ، لم أفهم منه شيئا بالطبع ولكنني عرفت من صراخهما انهما يتناقشان ، وقطعا حديثهما لوهلة نظرا إلي خلالها في شك وابتسما ثم قالا شيئا ، وتابعا صراخهما. وانتظرته فلم يأت ، وعدت أنظر خلال الممر فلم أجده ... ربما انتحر ،

وابتسمت ، ثم رحت أحاول أن أملأ جفوني بالراحة .

— ٣ —

منذ أن احتوتني المقصورة وأنا أشعر بالقلق ، فالعهد الذي قطعته لابي ، أحاول أن أكون جديا في تنفيذه . ولكن النهر لا يسير الا في مجراه . فرغم انني مسجل في جامعة برلين الا انني أعمل في مصنع قرب الحدود الشمالية ، وسنوات طويلة قضيتها هناك وسط محاولة الحياة في اللاشيء والسباحة في بحار البحث عن شيء ، نهاري كنت أعيشه وسط أمواج من الصخب ، صراخ رئيس العمال ، لا يزال يدوي في أذني والالماني الذي كان يعمل بجواري لم يكن يستطيع العمل الا وهو يغني ، الضجيج كان يملأ رأسي وأذني وحتى فجوة حلقي عشر ساعات كل يوم ، وكنت أعود كل مساء الى بيتي أشكو التعب وابحث عن النوم ساعات وأبكي كالطفل وانا اكتب لامي عن الجامعة وعن العمليات الجراحية التي تنال تقدير أستاذي في كل مرة أجريها ، وتبارك لي أمي في كل رسالة حبي لصديقتي ، كانت تفرح بي وتملأ رسائلها بالصلوات تحلم بي طبيبا وتأبى الذهاب أنى الطبيب لانه لن يشفيها من الروماتزم غير ولدها ، أنا ، ويرسل لي ابي دفعات سخية من النقود انثرها على العاهرات واشتري سيارة لاستبدلها بأخرى وأزور بلدانا وأعود مفلسا من جديد ، واذهب الى المصنع ثملا كل صباح واثر أمسية نتنة اشبع فيها من الشراب والدخان ومن عاهرة ألقاها على الطريق ، ولكنني هذه المرة سأبدأ من جديد لاجل دموع أمي ودعائها ، وقررت ان اكون وجها اخر لنفسي ، ومعي كان في المقصورة موظف مسكين ينام في كسل ولا مبالاة ، قال انه ذاهب الى اوروبا للمعالجة ، وسألني أسئلة كثيرة أجبت عليها اول الامر في حماس ، الا انه بدأ لي ثرثارا ساذجا ... سيجدد شبابه في المانيا .. زوجته .. رؤساؤه ، حكى الكثير عنهم وراح يفلسف قضايا سياسية كثيرة فشتم الكثيرين ومدح اناسا اكثر وظل يحكي ، وكان كبركان انفجر فاستمر يحدثني ولكنه أحس اخر الامر بضجري فصمت وهو ينظر الي في عتاب .

وبعد دخول المسافر الجديد الى المقصورة شعرت كان عبئا ثقيلا سأتخلص منه ، ولكن هذا الجديد كان معجبا بنفسه وكأنه لم يذق الفشل والضياع والبحث عن لا شيء ، كان واثقا من كل كلمة يقولها .. انه أنا التي اريد ان اكونها ، ولكنه حينما انطلقنا في الحديث في الصباح التالي ونحن ندخل حدود النمسا ، لم يكشف لنا خلال حديثه عن شيء ، كان كجاسوس عصري ، يعرف كل شيء ، ثم لا يعرف اي شيء ، ورغم كونه ثرثارا الا انه لم يرتح الى الموظف السمين ، فاعادني الى الضجر وحطم امالي في التخلص من احاديث صاحبي الذي عاد يمطرني باسئلته ولهفته على النوم مع احضان المانية باردة كالجليد .. سيذيب ذلك الجليد .. نحن نعرف كيف نذيب الثلوج والصخر .

ومرة اخرى بدا لي بريق أمل في ان الرجل سيصمت بعد دخول الشقراء الى مقصورتنا ، كان سينشغل عني وعن الحديث بها ، ورغم انشغاله بها لحظات ، عاد الي ثانية ، فقد كان المسافر الجديد قد جرها الى حديث طويل كنت اتمنى ان اكون انا السعيد الذي تحادثه ، فدخولها كان قد رسم المقصورة بلون جديد وارسل في جوها نفحة من الصفاء وكأنها كانت قد امسكت كلامنا وارسلت فيه روحا جديدة ليس فيها غير الجمال .

انقضت دقائق ارتكز فيها الحديث بينهما على مقر وراح يتموج في بحر من الالوان ويمضي في شعاب طلية كنت اتمنى مرة اخرى ان امضي بها واحدة من امسيات كثيرة كنت اقضيها مع العاهرات في قهقهات مصطنعة وقبلات بلا لون ، ورجت خلال ستار قراءتي لكتاب اراقب نهرا من الحنان يجري من عينيها ليلتقي بلسان لهب من عيون صاحبي ، وحاولت ان ارتشف بعض ذلك الحنان فلم أكن احظى الا بقطرات سم من غيرته ، فقنعت بالصمت ورحت اقرأ في كتابي سطورا لا أعي منها شيئا ، فقد كانت كل جوارحي ترهف الى الموسيقى التي تنبعث من شفتيها ، ماذا سيكون لو أصيب بسكتة قلبية ومات في لحظات ؟ او اذا قام اليها ليقبلها .. سأتدخل حينذاك وسيخجل وسيملأ العرق جبينه ويحمل حقيبته ويرحل الى مكان اخر .. انا لم احبه منذ الوهلة الاولى وغمزت لها ان تقوم معي ، ووقفنا متقابلين في الخارج وامسكت بيدها ، ولم تقل شيئا ولم تعترض ولكنني رأيت الفرحة ترقص في عينيها .

— أزعجني هذا الرجل ... هل هو صديقك ؟

— حاشا ، لست أعرفه أبدا ، فقد أزعجني منه صعوده الى القطار في صوفيا .

— سرني اني التقيت بك .. هل نذهب الى المقصف ؟

— بكل سرور .

وعانقت ذراعي كتفيها ونحن نسير الى المقصف وتحتضنها عيناي ويسندها جسدي كلما هزتنا حركة القطار ... وجلسنا وجها لوجه .. عيناها تقرآن عيني واصابعها تنام في سكون بين طيات شعري ، ولم يكن في المقصف غيرنا وحتى النادل كان ينام في مجلسه والاضواء تخبو ثم تسطع وعيناها لا تزالان في عيني .

— ألم أقل لك انهما سينامان الليلة معا ؟ سأراقبهما ... ليذهبا الى مكان اخر ويعملا ما يشاءان .

انت مرة اخرى ايها الثرثار . وعدت من حلمي العذب لارى ذراعه يحيط وسطها في حنان وهي امام الشباك المقابل للمقصورة وتفاريد ترفرف في شفتيها .

استانبول — صلاح بزركان

صدر حديثا :

الاشتراكية العربية

بين النظرية والتطبيق

بقلم

عبد الهادي الفكيكي

دراسة جدية مدعومة بالوثائق والارقام عن منجزات الاشتراكية في الجمهورية العربية المتحدة والجمهورية العربية السورية والجمهورية الجزائرية

منشورات دار الاداب — الثمن ٣٠٠ ق. ل